أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره

— ٤ —

أخلاقه :

عرف ابن جني بطيب الأخلاق والعفة والاخلاص في الود وقد رأينا ذلك جلياً في مرثية الشريف الرضي فيه وحسبك بالشريف شهيداً .

وكان أبو الفتح متصفاً بما يجب أن يتصف به جلّة العلماء من دأب على التحصيل ورحلةٍ في سبيل العلم وملازمةٍ للشيوخ ، وقد رأينا طرَفاً من ذلك في سيرته ...

وكان يحب الجد في الأمر كله ويحب أن يبتعد عن سفساف الأمور والمزاح ولكنه كان اذا سمع بالنكتة الطريفة ابتسم لها وهشّ وطرب ، فقد ذكر ياقوت «أن ابا الحسين القميّ حفيد أبي اسحق القميّ صاحب ديوان صمصام الدولة لقي ابن جني مرة في الديوان فجعل يتحدث تارة مع أبي الحسين وتارة مع جده أبي اسحق وكانت لابن جني عادة في حديثه بأن يميل شفته ويشير بيده فبقي أبو الحسين القمي شاخصاً ببصره يتعجب منه فقال له ابن جني : مالك ياأبا الحسين تحدق النظر إليّ وتكثر التعجب مني ؟ قال : شيء طريف ! قال ما هو ؟ قال شبهت مولاي الشيخ ـ وهو يتحدث ويقول ـ بيوزه كذا وبيده كذا ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بقرد رأيته اليوم عند صعودي الى دار المملكة وهو على شاطئ دجلة يفعل مثل ما يفعل الشيخ ، فامتعض أبو الفتح وقال : ما هذا القول يا أبا الحسين أعزك الله ومتى رأيتني أمزح فتمزح معي أو أمجن فتمجن بي ؟ فلما رآه أبو الحسين قد حرد واستشاط وغضب ؛ قال المعذرة أيها الشيخ اليك والى الله تعالى عن أن أشبهك بالقرد وإنما شبهت القرد بك ! فضحك أبو الفتح وقال ما أحسن ما اعتذرت ، وعلم أبو الفتح أنها نادرة تشيع فكان يتحدث بها هو دائماً [1] » .

ولأبي الحسين هذا نكت أخرى مع أبي الفتح ذكرها ياقوت في ترجمته .

وكان أبو الفتح كغيره من ذوي الفضل كثير الحساد ولكنه كان يهزأ بهم وقد ضمن قصيدته البائية [2] طرفاً من أخباره معهم .

وفي هذه القصيدة قد افتخر أبو الفتح برويته وهزيء بمن عابه بها فقال :

فان أصبح بلا نسب فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول الى قروم سادة نجب
قياصرة اذا نطقوا ارم الدهر ذو الخطب
أولاك دعا النبي لهم كفى شرفاً دعاء نبي [3]
وإما فاتني نشب كفاني ذاك من نشب

كما ضمنها طرفاً كثيراً من مناقبه ومزاياه رحمه الله .

---

(١) ياقوت ج ٥ ص ١٦ ، ١٧ .
(٢) انظر القصيدة في ياقوت ج ٥ ص ١٩ .
(٣) يشير بذلك الى الخبر المروي عن الرسول (ﷺ) انه لما بلغه من عمل قيصر الروم بكتابه الذي كتبه اليه يدعوه الى الاسلام قال (ثبت الله ملكه) كما في فتح الباري لشرح صحيح البخاري للعسقلاني ٤٢/١ طبعة بولاق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أدبه وعلمه :

عرف أبو الفتح بالعربية وبخاصة علم التصريف ، ولم يعرف بين الناس بأدبه وشعره ، وفي الحقيقة إنه كان كاتباً من خير كتاب زمانه وليس أدل على ذلك من توليه ديوان الإنشاء لسيف الدولة الحمداني ولعضد الدولة الديلمي ويكفيه فخراً قول أبي الطيب المتنبي فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » وكان اذا سئل عن معاني شعره قال : « عليكم بأبي الفتح فانه أعلم مني بشعري » .

ولقد أطنب فيه أبو الحسن الباخرزي في كتابه (دمية القصر) وذكره في باب الأئمة من الأدباء وقال فيه « .. ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات ، وشرح المشكلات مثاله ، ولا سيما في علم الإعراب فقد وقع عليها من ثَمْرَةِ الغُراب [1] ، ومن تأمل مصنفاته ، وقف على بعض صفاته ـ فوربي ـ إنه كشف الغطاء عن شعره ، وما كنت أعلم أنه ينظم القريض أو يسبغ ذلك الجريض حتى قرأت له مرثيته في المتنبي وأولها :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوّحت بعد ريّ دوحة الكتب »[2]

وقد نقل هذا الكلام كله ياقوت في ترجمة أبي الفتح وزاد عليه قوله انه من « أحذق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف » [3] . وقد حفظت لنا كتب الأدب طرفاً من شعر أبي الفتح وهو شعر حسن جيد يدل على ذوق أدبي رفيع فمن ذلك قصيدته البائية التي تربو على سبعين بيتاً والتي أولها :

وحلو شمائل الأدب منيف مراتب الحسب

---

(١) من أمثال العرب (وجد ثمرة الغراب) أي وجد أفضل شيء لأن الغراب لا يقع إلا على أفضل ثمرات النخلة .

(٢) الدمية طبع حلب ص ٢٩٧ .

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهي قصيدة جدّ حسنة رواها كلها ياقوت في المعجم . ومن ذلك أيضاً مرثيته في أبي الطيب المتنبي وقد رواها الباخرزي في الدمية وياقوت في المعجم وهي من عيون المراثي[1] . ومن ذلك أبيات منثورة في كتب الأدب كيتيمة الدهر للثعالبي ، وخاص الخاص له أيضاً وغيرهما من الكتب الأدبية ، واليك طرفاً من شعره ، قال في غلام :

غزالٌ غيرُ وحشيّ حكى الوحشيُّ مقلتَه
رآه الورد يجني الور د فاستكساه حلّته
وشمّ بأنفه الريحا ن فاستهداه زهرته
وذاقت ريحه الصبا فاختلسته نكهته[2]

وقال معاتباً صديقاً له عابه بأنه أعور :

صدودك عني ولا ذنب لي يدل على نية فاسدة
فقد ـ وحياتك ـ مما بكيتُ خشيتُ على عيني الواحدة
ولولا مخافة أن لا أراك لما كان في تركها فائدة[3]

وقال يرثي أبا الطيب المتنبي من قصيدة طويلة رائعة :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوّحت بعد ريّ دوحة الأدب
مازلتَ تصعبُ في الجُلّى إذا انشعبت قلباً جميعاً وعزماً غير منشعب
وقد حلبتَ لعمري الدهر أشطره تخطو بهمة لا وانٍ ولا نصب

وقال أيضاً وهو من الشعر العاطفي الجيّد :

---

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٨ . ويتيمة الدهر ج ١ ص ٨٩ .
(٢) المعجم لياقوت ج ٥ ص ١٨ .
(٣) المعجم لياقوت ج ٥ ص ١٨ وابن خلكان ج ١ ص ٣١٣ . وقيل ان هذه الأبيات الثلاثة ليست له وانما هي لأبي منصور الديلمي وهو غير صحيح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رأيت محاسن ضحك الربيع أطال عليها بكاء السحاب
وقد ضحك الشيب في لمتي فلم لا أبكي ربيع الشباب ؟
أأشرب في الكأس كلا وحاشا لأبصره في صفاء الشراب [1]

وله أبيات جيدة كثيرة أخرى متفرقة [2] .

هذا وقد ذهب الزميل الصديق الأستاذ القصاص في رسالته النفيسة التي كتبها عن ابن جني مذهباً مخالفاً لما ذكرناه فحمل على شعر أبي الفتح وقال [انه شعر ليست له قيمة تذكر [3]] واعتمد على ما ذكره ابن الأثير في تاريخه حيث يقول [وله شعر بارد] ولا ندري على ماذا اعتمد ابن الأثير في حكمه الظالم هذا ، وليس غريباً أن يصدر ابن الأثير هذا الحكم القاسي على ابن جني فانه معروف باستهانته بأقوال الناس وباستخفافه بآثارهم ، وكتابه مملوء بأمثال هذا محشو بالدعاوى الكثيرة والغرور . وليت ابن الأثير برهن دعواه فأبان لنا عن مواطن البرودة في شعر أبي الفتح كما فعل الثعالبي حين أشاد بأدبه وبشعره فساق على ذلك الشواهد والأمثال [4] . ثم ان زميلنا القصاص يفرط حين يحمل تلك الحملة القوية على ذوق أبي الفتح في البلاغة والنقد ويعتمد في ذلك على قول الواحدي « إنه اذا تكلم في المعاني تبلّد حماره ولقد استهدف في كتاب الفسر غرضاً للمطاعن إذ قد حشاه بالشواهد الكثيرة التي لا حاجة بهـا » . وكان ينبغي على الزميل ألاّ يقبل قول الواحدي المعروف بالحمل على ابن جني وانتقاصه وهذا شرح ابن جني موجود شاهداً على مكانة أبي الفتح ومقدار فهمه

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٠ .
(٢) انظر اليتيمة ج ١ ص ٧٧ .
(٣) ابن جني وفلسفته اللغوية ص ١٦ .
(٤) انظر اليتيمة ج ١ ص ٧٧ فما بعدها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لشعر المتنبي وهو في رأينا أفضل شرح للمتنبي وأجدر من يستطيع أن يفهمه كما قال أبو الطيب عنه .

ولم يكن ابن جني محسناً قول الشعر فحسب بل كان مجيداً في النثر أيضاً وليس أدلّ على ذلك من هذه اللغة الحلوة وهذا الأسلوب المبين الذي نراه في كتبه العلمية كسرّ الصناعة والخصائص ؛ فأنا لا أعرف نحوياً أو صرفياً أو بلاغياً كتب النحو والصرف والبلاغة بلغة كلها سلاسة وعذوبة وكلها جمال ولذة بأسلوب فني رائع إلا الإمام أبا الفتح بن جني وإلا الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمهما الله .

ولابن جني عدا النثر العلمي المبين الذي نجده في كتبه رسائلُ فنية وخطب كثيرة حفظ لنا الدهر بعضها ، من ذلك خطبة نكاح ذكرها ياقوت [1] ، وان الذي يقرأ هذه الخطبة ويرى قوة ابن جني في الرصف وحسن السبك ليؤمن بأن هذا الإمام قد ملك عنان الشعر والنثر معاً ، ولو أتيح لنا أن نظفر برسائله الديوانية مجموعة لرأينا أدباً جماً وفصاحة بارعة وعلماً غزيراً . وبعد فقد رأينا أن ابن جني على الرغم من سيطرة الروح العلمية عليه كان شاعراً وناثراً وليس هذا بغريب فإن القرن الرابع قد خلق رجالاً قالوا الشعر وبرعوا فيه ثم كان لهم من وراء ذلك نثر رائع وثقافة واسعة في اللغة والفلسفة والفقه وغيرهما من علوم ذلك العصر .

ولعل الزميل القصاص يتراجع عن رأيه في شعر ابن جني وأدبه حين يقول [وقد يحسن بنا في هـذه المناسبة أن نشرح بعض الشيء علل هذه الظاهرة التي قد تبدو غريبة عجيبة وهي اجتماع الشعر وعلم اللغة لشخص واحد .... أما اجتماعهما لكثير من أبناء هذا الزمن والزمن الذي تقدمه فيقوم ويفهم على صور تلك الحقيقة التي وجه اليها الأنظار أستاذنا الجليل طه حسين بك : فالشعر

(١) انظرها في ياقوت ، ارشاد الأريب ج ٥ ص ٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحسّي والانفعالي الذي كان في العصور السابقة حلّ محلّه اليوم شعر آخر يخدم التفكير ويقوم على ثمار التأمل العقلي .... فلا يأخذنا العجب إذن أن نرى لابن جني شعراً أو نجد شاعراً فحلاً كصديقه المتنبي عالماً لغوياً] [1] .

أفلا ترى معي أن السيد القصاص قد تراجع هنا عن رأيه حين قال : إنه لا قيمة تذكر لشعر أبي الفتح .

أما علمه فقد كان مضرب الأمثال حتى عدّ إماماً في علوم القراءات والصرف والنحو والعروض والقوافي والشعر واللغة والأدب والبلاغة . وله في هذا كله آثار وتصانيف أبرّ بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين ولم يكن في شيء من علومه أتم وأكمل منه في التصريف ، ولم يتكلم أحد في التصريف أدق كلاماً منه [2] .

هكذا يقول ياقوت ، وياقوت حجة فيما يقول . فقد قرأ كتب أبي الفتح وسبر غورها وعرف ما فيها من علم ، وأدب ، وبحث وتمحيص .

ظل أبو الفتح دائباً على تحصيل العلم وبخاصة العربية ، وكان اذا أشكل عليه أمر - على جلالة قدره - كتب الى العلماء في البلاد الاسلامية واستفتاهم أو رحل اليهم . فقد ذكر في كتابه (سر الصناعة) أنه كتب الى شيخه أبي علي الفارسي في حلب يستفتيه عن مسألة وهاك نصّ عبارته « وكتب اليّ أبو علي من حلب في جواب شيء سألته فقال : وقد ذهب أحد علمائنا إلى أن الهاء من (هناه) إنما لحقت في الوقف لخفاء الألف كما تلحق بعد ألف الندبة في نحو وازيداه ثم إنها شبهت بالهاء الأصلية فحرّكت فقالوا يا هناهُ ، ولم يسم أبو علي هذا العالم فلما انحدرت اليه في مدينة السلام وقرأت عليه نوادر أبي زيد نظرت

(١) ابن جني وفلسفته ص ١٧ .
(٢) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا أبوزيد هو صاحب هذا القول وهذا من أبي زيد غير مرضي عند الجماعة ...[١]»
فهل بعد هذا تحقيق أو حرص على طلب المعرفة الصحيحة ؟ .

ثم انه ليس من شك في أن أبا الفتح على الرغم من انتسابه الى المدرسة البصرية لم يكن مقلداً غيره من أئمة البصرة أو الكوفة أو بغداد ، فانه كان صاحب مذهب مستقل انفرد به وكان يعمل فكره في المسألة ويناقشها بعقله الواسع وتفكيره الصحيح ويستقصي أقوال الفصحاء والأعراب ثم يصدر حكمه فيها بعد التمحيص والتدقيق ، وما أجدرنا أن نسمي كتب ابن جني في الصرف والنحو بكتب (فلسفة العربية) وما أجدرها أن توصف بما وصفت به كتب الجاحظ من أنها تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ، فإنها تعلم العقل والأدب ، وأسرار العربية وأقيستها . وكتب أبي الفتح هي الكنز الدفين وهي أنفع المصادر العربية القديمة لفهم حقيقة النحو العربي ، وتفهم أسراره ، والتعرف الى ذلك الميزان العقلي الراجح الذي كان يزن به النحاة آراءهم ؛ وكُتُب ابن جني في رأي الأستاذ بروكلمان « مملوءة بدرس صحيح مفيد في تعرف أسرار اللغة العربية وفلسفتها ، وإن تحليل هذه الكتب وتفهمها لمن خير ما ينبغي أن ينصرف اليه العلماء في العصر الحاضر لفهم تاريخ النحو ، كما أن دراسة هذه الآثارة التي خلفها دراسة عميقة لما نحن في أشد الحاجة اليه[٢]» .

ويقول الأستاذ ميتس « ... وكما ان كتب اللغة التي ألفت بعد الجوهري كلها عيال عليه ، فكذلك كتب علم الاشتقاق وفقه اللغة ومعرفه أسرار العربية فإنها مما ابتكر الإمام ابن جني الذي فهم أسرار العربية وفلسفتها وبخاصة الاشتقاق ، وإنه لمن المؤسف أن لا يجيء بعد ابن جني عالم يتمم ما بدأ به مع أن كل الذين جاءوا من بعده قد استفادوا من كتبه ![٣]» .

---

(١) سر الصناعة ص ٤٤٥ من مخطوطتنا .
(٢) تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٣) ميتس Mez ص ٢٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والحق أن ابن جني كان آية الآيات في علمه بأسرار العربية من نحو وصرف ولغة وإنك إذا قرأت (سر الصناعة) أو (الخصائص) ، أو (التصريف الملوكي) رأيت نمطاً من البحث والتفكير وأسلوباً في معالجة القضايا لا تجده في مؤلف غيره . فانه مزج العلم الصحيح والرواية الواسعة بالعقل السليم والتفكير المستقيم فأنتج هذه الآثار والبحوث المفيدة .

لم يكن ابن جني - في أبحاثه ودروسه - يكتفي بأن يورد ما سمعه من أفواه الشيوخ أو ما رواه عن الفصحاء من الأعراب. وإنما كان كثير العناية بالبحث والتدقيق الشخصي فيما يعرض له من آراء العلماء الذين سبقوه . وانك لترى أثر هذا واضحاً في كتبه ، وإليك طرفاً من ذلك وهو رأيه فيما قاله النحاة في قولهم « هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ » :

« إن هذا ليس شاذاً ولا غلطاً من العرب كما يزعم النحاة وإنما هو من قبيل حذف المضاف وإن في القرآن نيفاً على ألف موضعٍ منه وان تقدير هذا الكلام « هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ جُحْرُه » وإن (خرباً) وصف (للجحر) كما تقول مررت برجل قائم أبوه [1] » .

فأنت ترى من هذا شدة اعتماده على بحثه وتفكيره الشخصي ، قال في الخصائص « .. واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، - يعني تفهم أسرار اللغة - فأجد الدواعي والخواطر قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات التغوّل على فكري ، وذلك انني اذا تأملتُ حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدتُ فيها من الحكمة والدقّة والإرهاق والرقّة ما يملك عليّ جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوَة السِّحر ، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابُنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوتُه على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده ، صحةَ ما وفّقوا لتقديمه منه ولطف ما أُسعِدوا به .. [2] »

(١) الخصائص ج ١ ص ١٩٨ من الطبعة الأولى .
(٢) الخصائص ج ١ ص ٤٥ الطبعة الأولى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وابن جني إذا ما أخذ يناقش بعض المسائل العلمية ناقشها بأسلوب ساحر ومنطق رائع حتى انك لتظن ان الذي كتب هذا الفصل هو إمام من أئمة البيان المعاصرين ، و كتاباه (الخصائص) و (الصناعة) مملوءان بالأمثلة على ما أقول ولا بأس من أن أورد مثالاً واحداً . قال في الخصائص في (باب ذكر علل العربية) :

« ... فإن قلت فقد تجد في اللغة أشياء كثيرة غير محصاة ولا محصّلة ، لا تعرف لها سبباً ، ولا تجد الى الإحاطة بعللها مذهباً ، فمن ذلك إهمال ما أهمل ، وليس في القياس ما يدعو إلى إهماله ، وهذا أوسع من أن يحوج الى ذكر طرف منه ، ومنه الاقتصار في بعض الأصول على بعض المُثُل ، ولا نعلم قياساً يدعو الى تركه ، نحو امتناعهم أن يأتوا في الرباعي بمثال فعلُل أو فعلِل أو فَعَلّ أو فُعُلّ ونحو ذلك . وكذلك اقتصارهم في الخماسي على الأمثلة الأربعة دون غيرها مما تجوّزه القسمة ، ومنه أن عدلوا فُعَلاً عن فاعل في ألفاظ محفوظة وهي ثُعَل ، وزُحَل ، وغُدَر ، وعُمَر ، وزُفَر ، وجُشَم ، وقُثَم ، مما يقلّ تعداده ولم يعدلوا في نحو مالك وحاتم وخالد وغير ذلك .... ولسنا نعرف سبباً أوجب هذا العدل في هذه الأسماء التي أرينا كها دون غيرها ، فإن كنت تعرفه فهاته ، فان قلت ان العدل ضرب من التصرف وفيه إخراج للأصل عن بابه الى الفرع وما كانت هذه حاله أقنع منه البعضُ ، ولم يجب أن يشيع في الكل ؟ قيل فهنا سلّمنا بذلك لك تسليم نظر فمن لك بالإجابة عن قولنا ـ فهلاّ جاء هذا العدل في حاتم ومالك وخالد وصالح ونحوها دون ثاعل وزاحل وغادر وعامر وزافر وجاشم وقاثم ؟ ألك ههنا نَفَقٌ فتسلُكَه أو مرتفقٌ فتتورّكه وهل لك غير أن تخلد الى حيرة الإجبال وتُخمد نار الفكر ، حالاً على حال ، ولهذا ألف نظير بل ألوف كثيرة ندع الإطالة بأيسر اليسير منها [1] » .

(١) الخصائص ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ الطبعة الأولى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا فصل من كلام طويل أورده ابن جني على لسان خصمه القائل بتفضيل أدلة الفقهاء على أدلة النحويين . ثم يقفي على ذلك بكلام فيهدم ما بناه خصمه في منطق سليم وقول ساحر وعلم غزير ولولا خوف الإطالة لنقلت طرفاً آخر من كلامه .

وقد كان ابن جني شديد الحرص على أن يجعل للنحو أصولاً كأصول الفقه وأصول التوحيد وقد بذل في ذلك جهداً عظيماً وخصوصاً في كتابه (الخصائص) وقد وفق الى تشييد جزء غير يسير من أركان هذا العلم ، ولكن أحداً من العلماء لم يتمم عمله ، غير أن السيوطي جلال الدين قد فعل شيئاً يسيراً من ذلك في كتابه (الأشباه والنظائر) ، ولكنه قطرة الى جانب بحر أبي الفتح الذي يقول في مقدمة كتابه هذا :

« ... كتاب لم أزل على فارط الحال وتقادم الوقت مُلاحظاً له ، عاكف الفكر عليه ، منجذب الرأي والرويّة اليه وادًّا أن أجد مُهملاً أصِلُه به ، أو خللاً أرتقه بعمله ، والوقت يزداد بنواديه ضيقاً ، ولا ينهج لي الى الابتداء طريقاً ، هذا مع إعظامي له ، واعتصامي بالأسباب المُتاطة به ، واعتقادي فيه أنه من أشرف ما صُنِّف في علم العرب وأذهبه في طريق القياس والنظر ، وأعوده عليه بالحيطة والصَّوْن ، وآخذه له من حصة التوقير والأوْن [1] ، وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة [2] » .

فهذا يدل على أن أبا الفتح قد انصرف الى التأليف في هذا الصنف من البحث الذي ملك عليه مشاعره لاعتقاده أنه من خير ما ينبغي أن يبحث عنه

(١) الاون : الدعة والسكينة .
(٢) الخصائص الطبعة الأولى ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في لغة العرب لتفهم أسرارها ، ومعرفة بعد نظر أهل اللغة العربية ومطابقة كلامهم لأقيسةٍ ونواميس مقرّرة . وقد صرح بهذا المعنى في غير موضع من كتبه ، ومن ذلك ما ذكره في (الرد على من اعتقد فساد علل النحويين لضعفه هو في نفسه عن احكام العلة) : «اعلم أن هذا الموضع هو الذي يتصفّح بأكثر من ترى ، وذلك أنه لا يعرف أغراض القوم [يعني أهل القياس والتعليل] فيرى لذلك أن ما أوردوه من العلة ضعيف واهٍ ساقط غير متعال[1]» .

وما كتاب (الخصائص) و (سر الصناعة) و (المذكر والمؤنث) إلاّ مصنفات وضعها لتبين كيف أن هذه اللغة الشريفة منضبطة القواعد وقد عانى ذلك بنفسه في مؤلفاته فضبط قوانين هذه اللغة وجمع شواردها وهو يرى ـ في شيء من الغلوّ ـ أن أحداً من النحاة قبله لم يفعل ذلك ؛ قال في الخصائص : «.. وذلك أنا لم نر أحداً من علماء البلدين ـ البصرة والكوفة ـ تعرّض لعمل أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه»[2] وإن كتاب الأصول لأبي بكر محمد بن السرى السراج (ـ ٣١٦) لم يلمم فيه إلا حرفاً أو حرفين وقد تعلق عليه به[3] . وأن أبا الحسن علي بن سليمان الأخفش (ـ ٣١٥) وإن كان قد صنف في شيء من المقاييس إلا أنه موجز ليس فيه غناء وان ما كتبه أبو الحسن كتيب صغير اذا قيس بكتاب ابن جني[4] .

والحق أن أبا الفتح قد سد ثلمة كبيرة ورتق فتقاً عظيماً بهذا العمل الجليل وهذه المحاولات الطيّبة التي حاولها في كتبه لضبط قواعد العربية وتعليلها تعليلاً

(١) الخصائص ج ١ ص ١٩١ من الطبعة الأولى .
(٢) مقدمة الخصائص ج ١ ص ٣ الطبعة الأولى .
(٣) ذكر من ترجم ابن السراج مثل ياقوت في معجم الأدباء ١٨ / ٢ من الطبعة الحديثة انه الف كتابين في أصول النحو أحدهما كبير والآخر صغير ، ولكنهما لم يصلا الى أيدينا .
(٤) انظر بغية الوعاة للسيوطي ٣٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أدعى فيه أن علل النحاة والصرفيين أقرب الى علل المناطقة والمتكلمين ، وان علل الفقهاء لا تُقاس اليها ، لأن علل النحاة مرجعها الحسّ ولأنهم يحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس ، وليس كذلك حديث علل الفقه ، وذلك انها إنما هي أعلام وأمارات لوقوع الأحكام ، ووجوهُ الحكمة فيها خفيّة عنا .... ألا ترى أن ترتيب مناسك الحج ، وفرائض الطهور ، والصلاة ، والطلاق ، وغير ذلك إنما يُرجع في وجوبه الى ورود الأمر بعمله ولا تعرف علة جعل الصلوات في اليوم والليلة خمساً دون غيرها من العدد ، ولا يُعلم أيضاً حال الحكمة والمصلحة في عدد الركعات ، ولا في اختلاف ما فيها من التسبيح والتلاوات الى غير ذلك مما يطول ذكره ... وليس كذلك علل النحاة وسأذكر طرفاً من ذلك لتصح الحال به .

قال أبو اسحق في رفع الفاعل ونصب المفعول ، إنما فعل ذلك للفرق بينهما ، ثم سأل نفسه فقال : فإن قيل فهلاّ عُكست الحال فكانت فرقاً أيضاً ؟ قيل : الذي فعلوه أحزم ، وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد وقد يكون له مفعولات كثيرة فرفع الفاعل لقلته ، ونصب المفعول لكثرته ، وذلك ليقل في كلامهم ما يستثقلون ، ويكثر في كلامهم ما يستخفون ؛ فجرى ذلك في وجوبه ووضوح أمره مجرى شكر المنعم وذم المسيء في انطواء الأنفس عليه [1] .

وأبو الفتح كان يرى أن العرب ما كانت تلقي الكلام إلقاء دون أنْ تفهمه وأنها كانت تريد من العلل والأغراض ما نسبه اليها النحاة وحملوه عليها . ولذلك أُطّردت في كلامهم القواعد ولم تشذّ من الرفع في موضع الفاعلية ، والنصب في موضع المفعولية ، والجر بحروف الجر ، والجزم بحروف الجزم ، والنصب بحروف النصب ... وغير ذلك من أحكام التثنية والجمع والإضافة والتصغير

(١) الخصائص ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ فما بعدهما الطبعة الأولى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(التحقير) والنسب وغير ذلك مما يطول تعداده وشرحه (فهل يحسن ـ بعد هذا كله ـ بذي لب أن يعتقد أن هذا كله اتفاق وقع ، وتوارد أتجه [١] ؟ .

وهو يعقد لهذا الأمر فصلاً عنوانه « إن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه اليها وحملناه عليها » ويقول في هذا الفصل :

« اعلم أن هذا موضع في تثبيته وتمكينه منفعة ظاهرة ، وللنفس به مُسكةٌ وعصمة ، لأن فيه تصحيح ما ندّعيه على العرب ؛ من أنها أرادت كذا لكذا ، وفعلت كذا لكذا وهو أحزم لها وأجمل بها ، وأدلّ على الحكمة المنسوبة اليها من أن تكون تكلفت ما تكلفته من استمرارها على وتيرة واحدة وتقريها منهجاً واحداً تراعيه وتلاحظه ، وتتحمل لذلك مشقة وكُلفة ، وتعتذر من تقصير إن جرى وقتاً منها في شيء منه ، وليس يجوز أن يكون ذلك كله في كل لغة لهم عند كل قوم منهم ، حتى لا يختلف ولا ينتقض على كثرتهم وسعة بلادهم وطول عهد زمان هذه اللغة لهم .. حتى لم يختلف فيه اثنان ... إلا وهم له مربدون وبسياقه على أوضاعهم فيه معنيون [٢] » .

أما بعد فنحن إزاء آراء أبي الفتح هذه أمام آراء فيلسوف كبير عرف أسرار اللغة ودقائقها حتى ضرب الناس بذلك الأمثال [٣] ولا غرو فقد تلقى أبو الفتح اللغة العربية من شيوخ فحول وسبر غورها بنفسه فأحبها وأعجب بها فقد كان لا يمرّ بدقيقة من دقائقها إلاّ أظهر إعجابه بها كقوله في الفصل الجميل الذي كتبه في البحث عن مادتي [ق و ل] و [ك ل م] : « ... فهذه أحكام هذين الأصلين على تصرفها وتقلب حروفها . فهذا أمر قدّمناه أمام القول على الفرق بين (الكلام) و (القول) ليُرى منه غورُ هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، ويعجب من وضيع مذاهبها وبديع ما أمد به واضعها ومُبدئها [٤] » ،

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٤٦ الطبعة الأولى .
(٢) الخصائص ج ١ ص ٢٤٦ الطبعة الأولى .
(٣) انظر كلام ملك النحاة بهذا الخصوص في البغية ص ٢٢٠ .
(٤) الخصائص ج ١ ص ١٥ الطبعة الأولى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله في هذا المعنى أقوال كثيرة تدل على شدة إعجابه بأسرار اللغة العربية، ولعل اطلاعه الواسع على هذه الأسرار وتفهمه لحقيقتها وانفراده بذلك جعله شديد الإعجاب بنفسه كثير الاعتداد بها وبما يكشفه من قواعد وأصول، وإنك لترى أثر الإعجاب واضحاً كل الوضوح في كثير من كتبه كقوله: «وما علمت أن أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ولا أشبعه هذا الاشباع ومن وجد قولاً قاله والله يعين على الصواب بقدرته»[1].

وقال «.. وقد استقصيت هذا وغيره من لطيف التصريف في كتابي المصنف لتفسير تصريف أبي عثمان رحمه الله تعالى وأتيت بالقول هناك على أسرار هذا العلم ودقائقه»[2].

وقال: «... وهو غريب منه ما في أيدي أكثر الناس، ومنه ما أخرجه لي البحث عنه وطول المطالبة له[3]».

ونحن إذا رحنا نتتبع أمثال هذه الأقوال في كتبه جئنا بالكثير الوافر، وحق له أن يعجب بنفسه، فقد بذل في اكتناه أسرار هذا العلم وكشف الخبأ منه جهوداً كثيرة. وقرّر منذ ألف عام كثيراً من القواعد التي أقرّها اليوم المستشرقون وعلماء الأصوات ومن ذلك قوله ان أصل الكلمات حين نشأتها هو أسماء أصوات ثم لما تقادم الزمن واستطاع الإنسان أن يرتجل أسماء الأعيان، صارت أسماء الأعيان أصولاً للاشتقاق، وهذه نظرة صائبة وفكرة صحيحة جزاه الله عن هذه اللغة الشريفة جزاء وفاق حبه لها وإخلاصه لخدمتها.

(يتبع) محمد أسعد طلس

(١) سر الصناعة ص ٥٠ من مخطوطتنا.
(٢) سر الصناعة ص ٨٢ من مخطوطتنا.
(٣) المصدر نفسه ص ٩٤.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net